بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

يمثل التصوف الإسلامي تجربة روحية خالصة في الفكر الإسلامي، نما وتطور عبر الزمن. وسجل أكابر الصوفية مواجيدهم وأذواقهم عبر أسفارهم. منها ما تم تحقيقه، ومنها ما يزال مخطوطًا وفي أَمَسِّ الحاجة إلى مجهودات المحققين.

نزعم من جانبنا أن الميدان البكر في مجال الفلسفة الإسلامية بمعناها الواسع من فلسفة وعلم الكلام، يدور حول التصوف الإسلامي. فما زال هذا الميدان يحتاج إلى مجهودات الدارسين، صحيح لا ننكر أن جهودًا قد بذلت من المسلمين والغربيين[1] على السواء، ولكن ما زال -النص الصوفي في حاجة إلى قراءة جديدة. أقول قراءة جديدة لأن بعض الدراسات تحكمها أيدلوجيا مسبقة أو يطوِّع الباحث -لهوى في نفسه- النص الذي يقف عليه تبعًا لرؤيته المسبقة، ومن ثَمَّ يترتب على ذلك أن يخرج بأحكام غير منصفة، وغير موضوعية ولا تمت إلى الحقيقة بوجه من الوجوه.

فما برح الخلاف الدائر حول قراءة النص عند محيي الدين بن عربي (على سبيل المثال)، ما بين مادح وقادح وكلا النظرتين لا نميل إليها! إنما مفتاح فهم ابن عربي فيما نظن يتمحور حول اللغة الرمزية، ومستوى الخطاب وفهمه العميق للحقيقة المطلقة أو لمفهوم الوحدانية كما تتجلي -بأوضح ما يكون- من خلال كتاباته المختلفة، فمن يقف على رسالته شجرة الكون[2] بمعايشة ومعاناة للغة ابن عربي، سيتضح له، أنه يقف أمام موحد رفيع الذوق يؤمن بالاثينية بين الله والعالم، وهذا ما دفع الإمام عبد الحليم محمود إلى التفرقة بين مصطلح الوجود والموجود[3]. وفي هذا الصدد ذهب البعض

---

(١) انظر: الدكتور على سامي النشار: نشأة الفكر الفلسفي في الإسلام، دار المعارف طبعة ثامنة ٣/ ٢٣ وما بعدها.

(٢) محيي الدين بن عربي: شجرة الكون.

(٣) راجع الإمام عبد الحليم محمود في كتابه: التصوف (المدرسة الشاذلية) دار المعارف ص٢٤٨ وما بعدها حيث يقول: (ونريد أن نبدأ مباشرة بملاحظة تزيل- بصورة غير متوقعة- حد المناقشة في هذا الموضوع. وذلك أننا بصدد «وحدة الوجود» ولسنا بصدد وحدة الموجود. والموجود متعدد: سماءً وأرضًا جبالاً وبحارًا، لونًا ورائحة، وطعمًا متفاوت ثقلاً وخفة... إلخ.

= ولم يقل أحد من الصوفيين الحقيقيين -ومنهم ابن العربي والحلاَّج- بوحدة الموجود- وما كان للصوفية، وهم الذروة من المؤمنين أن يقولوا -وحاشاهم- بوحدة الموجود. وقد نتساءل: من أين أتت الفكرة الخاطئة التي يعتقدها، كثير من الناس. من أن الصوفية يقولون بوحدة الموجود؟ وتفسير ذلك لا عسر فيه: إن فريقًا من الفلاسفة في الأزمنة القديمة، وفي الأزمنة الحديثة، يقولون بوحدة الموجود. بمعنى أن الله -سبحانه وتعالى عن إفكهم- هو والمخلوقات شيء واحد. قال بذلك هيراقليطس في العهد اليوناني: والله عنده نهار وليل، صيف وشتاء، وفرة وقلة، جامد وسائل- إنه على حد تعبيره -كالنار المعطرة تسمى باسم العطر الذي يفوح منها. تقدس سبحانه وتنزه عما يقول.

والله سبحانه وتعالى في رأي شلي «في العصور الحديثة» هو هذه البسمة الجميلة على شفتي طفل جميل باسم. وهو هذه النسائم العليلة التي تنعشنا ساعة الأصيل. وهو هذه الإشراقة المتألقة بالنجم الهادي في ظلمات الليل، وهو هذه الوردة اليانعة تنفتح وكأنها ابتسامات شفاه جميلة. إنه الجمال أينما وجد، ولكنه أيضًا -سبحانه وتعالى- القبح أينما كان. وكما يكون طفلاً فيه نضرة، وفيه وسامة يكون جثة ميت. ويكون دودة تتغذى من جسد ميت ويكون قبرًا يضم بين جدرانه هذه الجثة. وهذا الدود استغفرك ربي وأتوب إليك. ولوحدة الوجود -بمعنى وحدة الموجود- أنصار في كل زمان. ولما قال الصوفية. بالوجود الواحد.. شرح خصومهم الوجود الواحد بالفكرة الفلسفية عن وحدة الوجود بمعنى وحدة الموجود وفرق كبير بينهما ولكن الخصومة كثيرًا ما ترضى عن التزييف وعن الكذب في سبيل الوصول إلى هدم الخصم والغاية تبرر الوسيلة كما يقولون. وشيء آخر في غاية الأهمية. كان له أثر كبير في الخطأ في فهم فكرة الصوفية عن الوجود الواحد، وهو أن الإمام الأشعري رضي الله عنه رأى في فلسفته الكلامية أن الموجود هو عين الوجود، ولم يوافقه الكثير من الصوفية على هذه الفكرة الفلسفية. ولم يوافقه الكثير من مفكري الإسلام وفلاسفته على رأيه. وهو رأي فلسفي يخطئ فيه أبو الحسن الأشعري أو يصيب. وما مثله في آرائه الفلسفية إلا مثل غيره في هذا الميدان يخطئ تارة ويصيب أخرى. ورأى مخالفوه أن الوجود غير الموجود وأنه ما به يكون وجود الموجود. ولما قال الصوفية. شرح خصومهم فكرتهم في ضوء رأي الأشعري. دون أن يراعوا مذهبهم ولا رأيهم ففسروا قولهم بالوجود الواحد على أنه قول بالموجود الواحد. وهذا التفسير على هذه الطريقة يسحب الثقة من آراء هؤلاء الخصوم. وأمر ثالث يجب ألا يعيره أدنى التفات لأنه أتفه -في منطق البحث- من أن نعيره التفاتا، وهو أن هذه الكلمات التي تناثرت هنا وهناك. مخترعة ملفقة مزيفة، ضالة في معناها. تافهة في قيمتها الفلسفية غريبة على الجو الإسلامي تنادي بصورتها ومعناها أنها اخترعت تضليلاً وافتياتا. إنها الكلمات التي يغدونها إلى الحلاج رضوان الله عليه، أو إلى غيره، لا توجد في كتاب من كتبه ولم يخطها قلمه.. لقد اخترعوها ثم وضعوها أساسًا تدور عليه أحكامهم بالكفر والإضلال، ويكفي أن يتشبث بها إنسان فيكون في منطق البحث غير أهل للثقة. الوجود الواحد: وهل في الوجود الواحد من شك؟ إنه وجود الله المستغني بذاته عن غيره، وهو الوجود الحق الذي أعطى ومنح الموجود لكل كائن، وليس لكائن غيره سبحانه، الوجود في نفسه. إنه سبحانه الخالق. وهو البارئ المصور ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٦].

إلى قول ابن عربي بوحدة الشهود[١] وليس وحدة الوجود كما ذهب إلى ذلك أيضًا نفر من الدارسين[٢] وإن كنا نميل إلى الرأي الأول.

ومن ثَمَّ يرى كاتب هذه السطور -كما أشرنا آنفًا- أن النص الصوفي في حاجة إلى قراءة جديدة متحررة من أية أحكام مسبقة، بالإضافة إلى البعد الذاتي بطبيعة الحال. أقول إن التصوف لن يبوح بأسراره إلا بعد معاناة ومكابدة، فرغم الشروح العديدة لحكم ابن عطاء الله السكندري في القديم والحديث والمعاصر[٣]. فما زال النص يبوح بأسراره حسب الطاقة الروحية التي تتلقاه. وعلى هذا فليس من قبيل النظر الموضوعي الاعتماد على أحكام سالفة عند هذا الفريق أو ذاك. وخاصة أن اللغة الرمزية والمعاني الدلالية تحتاج إلى جهد ووقت لسبر غورها، وإن كانت بعض المناهج الغربية[٤] تحاول في هذا الاتجاه بالإضافة بطبيعة الحال إلى الموضوعية في قراءة النص ومراعاة النسق العام للصوفي.

قراءة تبحث في النص الصوفي من داخل بنيته المعرفية وليس من خارجها. إن البحث عن التأثير والتأثر، ومحاولة التماس أشباه ونظائر في الآراء والأفكار، ربما توقع الدارس في أخطاء كبيرة، ففكرة الفناء (مثلاً) داخل النسق الصوفي في الحضارة الإسلامية تختلف اختلافًا بينا عنها (النرفانا) عند الهنود. رغم وجود التشابه في النظرات الجزئية بين الفكرتين[٥]. ولعل هذا النهج قد أوقع بعض الدارسين من الغربيين ومن على شاكلتهم من المسلمين في أخطاء لا حصر لها[*].

(١) دكتور مصطفى حلمي: ابن الفارض والحب الإلهي، دار المعارف طبعة ثانية ص٣٤٠.

(٢) دكتور أبو العلا عفيفي: التصوف الثورة الروحية في الإسلام ص١٨٧ وما بعدها، دكتور أبو الوفا الغنيمي التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي، دار الثقافة للنشر والتوزيع ١٩٨٤ ص١٩٨.

(٣) هناك شروح عديدة للحكم العطائية مثل ابن عجيبة في القديم، وفي المعاصر، شرح العارف بالله الشيخ محمد عيد الشافعي: (الفيوضات الربانية في شرح الحكم العطائية) مطبعة الرسالة، وكذلك، دكتور محمد سعيد رمضان البوطي: (الحكم العطائية) شرح وتحليل، دار الفكر بدمشق ٢٠٠٥م وغيرهم من الشروح.

(٤) دكتور جوزيبي سكاتولين: تأملات في التصوف والحوار الديني (من أجل ثورة روحية متجددة)، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٢م. ص٢٣٧ وما بعدها.

(٥) انظر: دكتور محمود حمدي زقزوق: مدخل عام حول مفهوم التصوف الإسلامي ضمن موسوعة التصوف الإسلامي، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ٢٠٠٠م ص١٦ وما بعدها.

(*) آمل أن يتسع الوقت والجهد لإخراج دراسة عن إشكالية المنهج عند الصوفية.

والدراسة التي بين أيدينا، تدور حول قضايا التصوف الإسلامي قسمتها إلى أربعة فصول. في (الفصل الأول)، وقفت على موضوع أعتقد أنه من القضايا المهمة عند الصوفية، ألا وهو (مشكلة الموت وعلاقتها بحال الفناء عند الصوفية) وبشكل خاص من القرن الثالث حتى الخامس الهجريين، وعمدت إلى تحديد المرحلة التاريخية التي رأيت أن التصوف قد نما واستوى فيها، ومن ثَمَّ عالجت الموضوع من كافة زواياه وخاصة موقف الصوفية من حقيقة الموت والرؤيا المنامية وعلاقتها بهذا الموضوع، وكذلك أشرت إلى موقف الوجوديين من مشكلة الموت في النسق الغربي لأقيم موازنة بنظيرها عند أعلام الصوفية، وانتهيت في هذه الدراسة بتحليل مشكلة الموت وعلاقتها بحال الفناء.

وفي (الفصل الثاني)، وقفت على موضوع (التصوف عند ابن خلدون) برؤية نقدية، حاولت قدر المستطاع وفي حدود مجهودي المتواضع أن أقدم حلاً للإشكاليات المنهجية في فكره، لأوضح للقارئ حقيقة البنية الفكرية عند ابن خلدون وخاصة أن هناك بعض الكتابات التي تتهم الرجل باتهامات شائنة! أو أنه لم يكن أكثر من عالة على أفكار إخوان الصفا!

لقد حاولت أن أرد على هذه المزاعم بالحجة العقلية والإقناعية بلا انفعال أو حماس وخاصة أن ابن خلدون يمثل رصيداً ثرياً في حضارتنا الإسلامية، في فلسفة التاريخ وعلوم العمران والتفسير وغيره من العلوم.

لقد كان حرياً أن أستنطق نصوص ابن خلدون لكي يبوح لي بما يعتمل في نفسه! وأن أطرح التساؤلات على هذا العقل الجبار، وتبين لي من خلال النظر الموضوعي أن المنهج الذوقي العرفاني لم ينكره في مجال الغيبيات مع الأخذ بالعلية والسببية في مجال الطبيعيات.

ومن ثَمَّ فهو لم يرفض المنهج الصوفي كسلوك أخلاقي لتربية النفس على الفضيلة وخاصة في كتابه شفاء السائل وإن لم يعتمد على المنهج الصوفي بالطريقة التقليدية بين الشيخ والمريد أو بطريقة أهل الطرق وإن لم ينكر ذلك على أرباب الطريق.

فابن خلدون الأشعري، كان يعبر عن تصوفه السني الذي يلتزم بالقرآن والسنة، ومن ثَمَّ فإن الرجل كان يضع الضوابط والمحددات المنهجية لإقامة تصوف إسلامي رشيد وعلى حد قوله في مقدمته: (إن الصوفي لا غنى له من لغة الرمز والإشارة، واصطناع أساليب

التمثيل والتصوير لكي يترجم عن أحواله ويعبر عن مواجيده وأذواقه مهما يكن في لغة الرمز من قصور عن التعبير، لأن موضوعات تجاربه خارجة عن نطاق الموضوعات الحسية والعقلية التي تعبر عنها اللغة الوضعية الاصطلاحية) هذا بالإضافة إلى عقليته النقدية والتي تجلت من خلال نقده للتصوف الفلسفي وكما هو معروض في ثنايا الدراسة.

في (الفصل الثالث): وقفت على موضوع جدير بالاعتبار في النسق الصوفي، ألا وهو فقه الباطن وأثره في التوازن بين الروح والجسد، حاولت أن ألقي الضوء عليه من كافة جوانبه خاصة أن فقه الظاهر قد دبج فيه الكثيرون كتب مختلفة، أما موضوع فقه الباطن فنحن في أمس الحاجة إلى دراسات متعمقة حول الموضوع. لقد ناقشت العلاقة بين فقه الظاهر والباطن والدلالات الذوقية للعبادات، ومفهوم التوازن بين الروح والجسد من خلال الفهم الصحيح لفقه الباطن، وفي نهاية الفصل أشرت إلى ضرورة الاهتمام بفقه الباطن وعلاقته بالواقع في حياتنا المعاصرة.

في (الفصل الرابع): عالجت مشكلة الاتصال بين ابن باجة وابن طفيل، هذا الموضوع الذي ينتمي إلى التصوف الفلسفي وخاصة أن نظرية الاتصال من الموضوعات التي شغلت ابن باجة وابن طفيل، كما سلطت الدراسة الضوء على إشكالية المعرفة وعلاقتها بنظرية الاتصال عند كل منهما، ولقد انتهت الدراسة إلى أن المعرفة الحقيقية في اتصال العقل الإنساني بالعقل الفعال، وإن لاحظنا أن ابن طفيل يستخدم ألفاظًا تفيض روحانية، مما دفع بعض الدارسين إلى القول بالمعرفة الكشفية ولقد فندنا مثل هذه الآراء، وانتهينا إلى أن ابن باجة وابن طفيل بصدد المعرفة قد انتهيا إلى موقف واحد، يتشابه بينهما كل التشابه مع الأخذ في الاعتبار الاختلاف بينهما في طريقة المعالجة.

آمل من خلال الدراسات السابقة لبعض قضايا التصوف الإسلامي، أن نُعَبِّد الطريق أمام الدارسين لمزيد من البحث والدراسة.

والله ولي التوفيق،

القاهرة في ١٢ من أبريل ٢٠١٤م

الموافق ١٢ من جمادى الآخر ١٤٣٥هـ

دكتور جمال سيدبي